الباب الثالث

البديع قبل ابن المعتز

الفصل الأوّل

البديع ومعانيه قبل عصر ابن المعتز

كان لفظ البديع مستعملا لدى الشعراء الجاهلين والمخضرمين قبل تدوينه في عصر ابن المعتز وكذلك مذكورة بكثرة في القرآن الكريم وحديث رسول الله صلعم في ذلك الحين البديع لم يضعه على نوع خاص من أنواع البلاغة ولم يحدد معانيه[1]، وفيما يلي بحث الباحث معاني البديع لغة قبل عصر ابن المعتز:

---

[1] دكتور بدوي طبانة، البيان العربي، ص: ٥٩

الأوّل: بمعنى الجديد والمخترع، وعلى هذا المعنى في شعر الجاهلين والمخضرمين. ومن هذه الأمثلة قول عدي بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالا غدت بعد بؤس بأسعد[٢]

وقول الأحوص:

فخرت فاتتمت فقلت انظريني ليس جهل آتيته ببديع[٣].

الثاني: بمعنى نشأ وبدأ على غير مثال سابق وعلى هذا المعنى ما في القرآن الكريم قوله تعالى: "بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنه يقول له كن فيكون" (البقرة: ١١٧)

وقال تعالى أيضا في السورة الأنعام: ١٠١:

---

[٢] حفني محمد شرف، بديع القرآن،ص: ٨

[٣] نفس المكان

"بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم"[٤]

الثالث : بمعنى الجديد الطيب. وعلى هذا المعنى قوله صلعم، في وصف تهامة: "إن تهامة كبديع العسل حلو أوله حلو آخره"[٥].

الرابع : بمعنى الجدة كقول رسول الله عليه السلام ايضا :

"كيف اصنع بما أبدع عليّ منها"

وكان هذا المعنى مستعملا في الشعر والنثر لجدتهما وطرافتهما التي وجد في صدر الإسلام. ومن النثر قول عليّ بن أبي الطالب حرم الله وجهه :"إن ابغض خلائق إلى

---

[٤] الدكتور حفني محمد شرف، الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ص، ٢-٣

[٥] نفس المرجع ص، ٣

رجلان: رجل وكّله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة"[٦] وقول عبد الحميد الكاتب : "وقدرها بحكمه على ما يشاء من عزمه مبتدعا لها بإنشائه إياها وقدرته عليها"[٧] ومن أمثلة الشعر بمعني الجدة يقول عمر ابن أبي ربيعة المخزومي :

"فأتتها فأخبرتها بعذري ثم قالت أتيت أمرا بديعا"[٨]

وقول الفرزدق :

أبت ناقتي إلاّ زيادا ورغبتي وما الجود من أخلاقه ببديع[٩]

---

[٦] حفني محمد شرف، بديع القرآن ص، ١٠

[٧] نفس المكان

[٨] نفس المرجع ص، ١١

[٩] نفس المكان

هذا المعاني البديع ذكر الباحث وقد ورد قبل أن يضعها ابن المعتز في بحث خاص تحت عنوان "البديع" وبهذا انتهي معاني البديع أمرين اثنين،هما :

(١) الجدة التي يدل عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق.

(٢) البراعة والغرابة التي يدلّ عليها العجيب[١٠]

[١٠] الأستاذ محمد عمران زين العالم، البلاغة في علم البديع، ص ٢٠

الفصل الثاني

البديع اصطلاحا

قبل توضيح معنى البديع اصطلاحا ينبغي للباحث أن يبين أولا المقصود من اصطلاح البديع في هذا الفصل، والبديع اصطلاحا هنا ليس اصطلاحا قبل عصر ابن المعتز فحسب بل يتّسع إلى العصر بعده. لأن البديع اصطلاحا لا يظهر في عصره تعريفا .

ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة، وتعليقه على بيت الأشهب بن رميلة يؤيد ذلك حيث سمّي الاستعارة بديعا ولكنّه لم يعرفه أو يشير إلى فنونه بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقا[1] . وهو يذهب في البديع مذهب معاصريه

---

[1] الدكتور احمد مطلوب، فنون بلاغيّة البيان-البديع، ص ١٩٨

ممن أدخل الاستعارة والطباق والجناس والتوريّة والتشبيه والكناية في أبوابه. وإذا نظرنا إلى البديع هذه النظرة الواسعة رأينا كثيرا من فنونه في كتبه[٢].

ويظهر أنه في عهد الجاحظ جرت كلمة "البديع" ومشتقاتها وما يقاربها في المعنى على ألسنة وأقلام العلماء والأدباء وصفا للمعاني والصور الغريبة الطريفة أو الجيّدة حتى صارت أشبه بالاصطلاح الذي يدلّ على الجديد المستحسن في البيان العربي[٣].

وكان ابن المعتز ينظر إليه هذه النظرة أيضا وقد ألّف البديع ليرد ما ذهب إليه معاصروه من أنّ هذا الفنّ طارئ وأنّ بشارا ومسلما

---

[٢] نفس المرجع، ص ١٩٩

[٣] الدكتور حفني محمد شرف، الصور البديعية بين النظريّة والتطبيق، ج ١، ص ٩

وأبا نواس ومن تبعهم لم يسبقوا إليه، ولكي يبرهن على ذلك قدّم في أبواب كتابه أمثلة منه[٤].

وقد صارت هذه الكلمة "البديع" مصطلحا علميا يدل على هذه الفنون الجديدة الغريبة التي تكسب الكلام حسنا وقوّة وبيانا. ويأتي بعد ابن المعتز في هذه الفنون قدمة ابن جعفر وأبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني وأبو بكر الباقلاني وابن رشيق القيرواني والسكاكي وابن مالك وغيرهم ولكن منهم لا يعرّفونها إلّا بعد الخطيب القزويني (ت ٧٣٩). ففصل الخطيب البديع فصلا تاما عن البلاغة[٥]. فعرّفه هو: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[٦].

---

[٤] الدكتور احمد مطلوب، المرجع السابق. ص ١٩٩

[٥] الدكتور احمد مطلوب، نفس المرجع، ص ٢٠٠-٢١٠

[٦] عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ص ٢

والمراد بالوجوه هنا وجوه تحسين الكلام التي يمكن إرجاعها إلى أمرين أساسيين:

الأول: التحسين المعنوي هو الذي وجبت فيه رعاية المعني دون اللفظ ومن أمثلة ذلك قوله تعالى وأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى (الليل: ١-٥).

الثاني: التحسين اللفظ هو ما رجعت وجوه تحسينه إلى اللفظ دون المعنى والمثال قوله تعالى: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة" وكذلك قال الشاعر في رثاء صغير اسم يحي:

"وسمّيته يحي ليحيا فلم يكن إلا رد أمر الله فيه سبيل"[٧]

---

[٧] السيد حفني محمد شرف، بديع القرآن، ص ٣٢

فيتحصل من هذا الحدّ إن العلم بوجوه تحسين الكلام لا يسمى بديعا إلا بشرطين هما :

١) . أن يكون ذلك الكلام مطابقا لمقتضى الحال .

٢) . أن تكون كيفية طرق دلالته معلومة الوضوح والخفاء[٨]

---

[٨] السيد حفني محمد شرف الدين أبي الإصبع المصري، ص ٨٥

الفصل الثالث

العلاقة بين البديع والبلاغة

بعد توضيح البديع لغة واصطلاحا، فمن المستحسن للباحث الكلام لمحة عن البديع قبل عصر ابن المعتز أولاً قبل البحث عن العلاقة بين البديع لأن هذا البحث يتعلق بها .

البديع مستعمل عند الشعراء القدامى كما ذكر فيما سبق وهذا قد ظهرت فيما مضى ألوان بديعية في شعر الشعراء ومدى استعمالهم لها . ولكن الشعراء إذا استعملوا ألوان بديعية وأكثر بعضهم منها وأنها لم تكن محدودة المعالم بل كانت طرائف يزينون بها شعرهم قبل أن يصير البديع علما قائما بذاته ويفرد له العلماء مؤلفا خاصا[1]

---

[1] الدكتور حفني محمد شرف، المرجع السابق، ص: ٤٨

زيادة على ذلك كان الشعراء القدماء لم يكونوا يعرفون غالبا للألوان البديعية أسماء وإنّما يعرفون الكلام صورا جميلة تروق السامع وتدهشه، فإذا ما سئل أحدهم عن سرّ الجمال في هذه لم يجب بأنها استعارة أو جناس، وإنما هي صور جميلة[2].

فهذا تكلم أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى ٢٠٦) عن معنى الكناية عند قوله تعالى: "أو جاء أحد منكم من الغائط"[3]. وتكلم سيبويه (المتوفى ١٨٠) في أثناء كلامه على بعض قواعد الإعراب عن أشياء تتعلق بأسرار التراكيب وأوجه الدقة في استعمال الألفاظ وهو تكلم عن الإيجاز عند تعليقه على قول عمرو بن شاس:

بنى أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا[4]

---

[2] نفس المرجع، ص: ٤٧

[3] نفس المرجع، ص: ٤٩

[4] نفس المرجع،ص: ٤٨-٤٩

هـذا شـيء قـليل مـن الـبديع قـبل تدويـنه والآن انـتقل الـباحث إلى الحديث عن العلاقة بين البديع والبلاغة.

إن البلاغة باعتبارها علما لا تظهر دفعة، وهي كاملة كما نعرفه الآن وقد كانت في بداية نشأتها نبتة صغيرة غير واضحة الملامح ولا محددة الهدف، كما استعمال البديع قبل تأليفه. وقد استمرت هذه الحال عدة قرون إلى أن أخذت شكلها النهائي في القرن السابع الهجري على يد السكاكى (المتوفى ٦٢٦) والخطيب الخزينى (المتوفى ٧٣٩) في القرن الثامن.

وقد ذكر حفني محمد شرف في كتابه، أن كتاب الجاحظ(المتوفى ٢٥٥) وهو كتاب "البيان والتبيين" وكذلك غير من الكتب تتناول الحديث عن الاصطلاحات البديعية في فن البلاغة لم

تكن حدود معانيها دقيقة وكذلك إنها كثير ما يستعمل الفاظ البلاغة والفصاحة والبيان كمترادفات تدل على معنى واحد[٥]. ولا يتحدّث عن كلمة "البديع" في بحث خاص ولم يطلقها على نوع خاص من أنواع البلاغة.

إلى جانب ذلك تكلم الجاحظ عن حسن الابتداء والتشبيه والاحتراس وحسن التقسيم والاستعارة والسجع والكناية والازدواج ولا حاجة هنا إلى الإطالة بذكر الأمثلة، لأن المقام هنا ليس مقام تمثيل بل مقام تعرفه ما عرف من أنواع الأساليب البديعيّة أو البلاغيّة قبل عصر التأليف[٦].

---

[٥] حفني محمد شرف، الصور البديعيّة، القسم الأول، ص ١١٣

[٦] حفني محمد شرف، نفس المرجع، ص ١١٥-١١٨

وجد الباحث إن العلماء والأدباء والنقاد في هذا العصر بدءوا يلتفتون إلى هذا الأساليب البلاغية مشيرين إلى روعتها وجملها وقوتها وتأثيرها للسامعين والمخاطبين دون أن يضعوا لها اصطلاحات لها أو لبعضها أو وضعوا لها اصطلاحات كل حسب ما وصل إليه تفكيره ولا يحاولون أن يؤلّفوا كتابا خاصا تحت عنوان البديع أو البلاغة أو البيان صحيح أن ثمة كتابا خاصا تحت عنوان "البيان والتبيين" وهو للجاحظ لكن صاحبه بتحدّث فيه مسائل شتى في اللغة والأدب.

وفي أوائل القرن السابع قد تمم السكاكى ما بدأه قدمة بن جعفر وابن المعتز، وأخذ السكاكى علوم البلاغة ووضعها الوضع الأخير فتحددت موضوعاتها وانفصلت أقسامها ووضعت أسمائها هي

المعاني والبيان والبديع وعلى ذلك سارت الدراسة البديعية إلى الآن[٧].

مهما كان ابن المعتز قد ألف كتاب "البديع" في القرن الثالث الهجري في بحث خاص لكن لم يذكر قسما من علوم البلاغة بل البديع والبلاغة عنده بمعني واحد لأن ابن المعتز يبحث عن الاستعارة في ذلك الكتاب والاستعارة هنا قسم من أقسام البيان.

إن أعم العلوم الثلاثة هذه هو علم المعاني أخصها علم البديع لأن علم البديع مركّب من الفنّين المقدّمين له: المعاني و البيان، والقاعدة أن الأخص يتركّب من الأعم وزيادة،والبيان متوسط بينهما . فهو مشتمل على المعاني ومندرج تحت البديع مستلزم للبيان والمعاني

---

[٧] حفني محمد شرف، نفس المرجع، ص ٢٢

لأنهما جزءان للبديع وكل بيان مستلزم للمعاني لأنه جزؤه وليست المعاني مستلزمة للبيان والبديع[٨]

[٨] الدكتور حفني محمد شرف ابن آبي الإصبع المصري، ص: ٩٠